المحاضرة ١:
مدخل الأنساق الثقافية / الخلفيات والمرجعيات

تتواجد نظرية الأنساق ضمن مداخل معرفية متعددة ومختلفة ، فهي السرديات الجديدة لِما بعد الحداثة أو مابعد الرؤية البنيوية التي هيمنت على الفكر والمعرفة لِحقب طويلة .

" يعتبر نيكلاس لومان الممثل والمؤسس الألماني لنظرية الأنساق ....، نظرية الأنساق العامة هي نظرية شاملة يمكن تطبيقها على كل الأنساق أكانت إجتماعية أم نفسية .....يتم التواصل بحسب تعبير لومان داخل كلِ نسق بناءً على منطق ذاتي مستقل عن منطق الأنساق الأخرى ، ويسمي لومان هذه الأنساق بالأنساق الوظيفية لأن كلٌ منها يتفرد بوظيفة إجتماعية مهمة ، فنسق القضاء يصوغ المعايير القانونية العامة ويدفع لتنفيذها ، أما نسق العلوم فينتج معارف خاصة بالحقيقة ، ونسق السياسة يتخذ قرارات ملزمة للجميع وهكذا دواليك ...فكل نسق منها لايمكنه القيام إلا بوظيفته ، وهو مستقل بمعنى إنتاجه الذاتي للقواعد التي يعمل على أساسها ، تماما مثل العناصر التي تشكله "(١)

(١) نيكلاس لومان ، مدخل إلى. نظرية الأنساق ت يوسف فهمي حجازي ، منشورات الجمل بغداد 2010 ص 5.4

لقد ظهرت نظرية الأنساق ضمن العلوم الإجتماعية والسياسة لتنتقل إلى مجالات معرفية متعددة ومختلفة أهمها نظرية الأنساق الثقافية أو المقاربة الثقافية ، كونها لم تكتسب بعد التوصيفات والآليات والمفاهيم التي تتيح لنا توصيفها بالنظرية ، كون هذه الأخير مستعصية وغير مكتملة في كثير من الأحيان إلا حين تكون على مشارف الأفول .

قد نجازف إذا حاولنا أن نقدم مفهوما واضح الحدود للأنساق الثقافية نظريةً ونقدا ودراسات ، ذلك أن أهميتها تكمن في قدرتها على التفكير بصورة غير نسقية ضمن منظومة من المعالم النسقية والإجراءات المؤسساتية للثقافة والجماليات .

تتموقع مقاربتنا ضمن تخوم وفهوم ملغّمة كونها غير قابلة للتمأسُس نحن من اعتاد على ضوابط وأعراف المؤسسة وعلى النصوص المتعالية التي توّجت بمعايير جمالية خالصة .

إذ أنّنا إزاء مفاهيم متداخلة وشائكة في وجودها ضمن مقابلات حتمية/ تاريخية وجمالية وإجرائية، اختلفت حولها الآراء والمقاربات من مثل النقد والنقد الثقافي والدراسات الثقافية .

لقد ارتبط النقد الأدبي دوما بالمعايير الجمالية للنصوص ، التي حددتها المؤسسة النقدية منذ آرسطو إلى اليوم .

في حين جاءت الدراسات الثقافية بوصفها مشروعا سياسيا في الأصل كشكل من أشكال المقاومة الثقافية لمختلف الهيمنات الخطابية السياسية التي صنعت منظومة الهامش بين قوى إمبريالية وإستعمارية مهيمنة وفئات مهمّشة ضمن فهوم المركز والهامش في المجتمعات الصناعية .

أما النقد الثقافي فهو ذلك النشاط المعرفي النصوصي الذي يشتغل على طبقات نصية غير معلنة أو داخل الثقافة المضمرة .

يمكننا فهم التخوم التي تنخرط ضمنها الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ضمن تلك التخوم الثقافية مابعد حداثية التي رسمها هومي بابا وغايتري سبيفاك في ثقافة التابع ومقاربات مابعد الحداثة التي أسّست لها الكولونيالية ومخلفاتها والتي أنتجت لنا معارف : فرانز فانون ، ميشيل فوكو ، جاك لاكان ، دريدا جاك، جوليا كريستيفا ، إدوارد سعيد ، عمر أزراج وستيوارت هول ....إلخ .

أن تمسك ببعض المعنى لهذا النوع من الدراسات هذا يعني "أن تعيش في تلك اللحظات من الغرابة المقلقة ، على الحدود مابين الثقافات والأمم والهويات والعوالم، على الجسر في منطقة الهجنة والتجاذب والإنشطار" ، هكذا تحدث المترجم في مقدمته عن هومي بابا في موقع الثقافة (٢)

(٢) هومي بابا ، موقع الثقافة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ط١ 2006 ص 9

ولعلها/ الدراسات الثقافية والنقد الثقافي بشيئ من الإختلاف ، هي " أن تتورط في ذلك المنظور مابعد الكولونيالي ، أو الأقلّوي أو المهاجر الذي تُعاد منه كتابة تاريخ الحداثة ، فما يراه هومي بابا هو أنّ تواريخ الكولونيالية والإستعباد والإستغلال والتميز الجنسي والإضطهاد والتراتب الطبقي ...هو التفكير في تلك الطرائق التي يُفصح من خلالها عن التراتبيات الإجتماعية وتفاوضاتها.

لعل هذا تحديدا ما يجعلنا نلّح على أنّ الدراسات الثقافية هي في الحقيقة مشروع سياسي بامتياز ، وهو تحديدا مايوضح الإختلاف بينها وبين النقد الثقافي الذي

يسعى إلى كشف الأنساق المضمرة داخل النصوص إنطلاقا من أنساقها الجمالية المعلنة .